(١٧) شقيق البلخي(١)

ذكر أبي علي شقيق بن إبراهيم البلخي قدس الله روحه:

كان رحمه الله وحيدَ عهده، وشيخَ وقته(٢)، وله في الزهد والرياضة قدمٌ راسخة.

ومضى عمرُهُ على التوكّل، وكان في أنواع العلوم كاملاً، وله تصانيفُ في جميع الفنون(٣).

وكان شيخًا لحاتم الأصم، وتعلّم علمَ الطريقة عن إبراهيم بن أدهم روّح الله تعالى روحه.

وأدرك كثيرًا من المشايخ، حتى قال: خدمتُ ألفًا وسبع مئة شيخ، وجمعت أَوقارًا من الكتب، ووجدتُ الطريق إلى الله تعالى في أربعةٍ: الأول: امتثالُ أمره. الثاني: إخلاصُ العمل له. الثالث: عداوةُ الشيطان. الرابع: الاستعداد للموت.

قيل: كان سببُ توبته أنه كان من أبناءِ الأغنياء، وخرجَ للتجارة إلى أرضِ الترك، وكان شابًّا حدثًا، فدخل يومًا بيت الأصنام، ورأى خادمَ الأصنام في ذلك البيت حلقَ رأسَه ولحيته، واصفرّ لونه، وعليه ثوبٌ أرجوانية، فقال

---

(١) الجرح والتعديل ٤/ ٣٧٣، طبقات الصوفية ٦١، حلية الأولياء ٨/ ٥٨، الرسالة القشيرية ٥٣، صفوة الصفوة ٤/ ١٥٩، مناقب الأبرار ١٨٢، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ١٠٨، وفيات الأعيان ٢/ ٤٧٥، مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٣٢٠، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٣، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٧٩، دول الإسلام ١/ ١٢٣، العبر ١/ ٣١٥، فوات الوفيات ٢/ ١٠٥، الوافي بالوفيات ١٦/ ١٧٣، مرآة الجنان ١/ ٤٤٥، نفحات الأنس ٧٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٦، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٣٢٠، شذرات الذهب ١/ ٤٣١.

(٢) في (أ): كان وحيدَ عصره، وشيخ عهده.

(٣) لم أقف على مؤلفاته.

شقيق: يا هذا، إن لك صانعًا حيًّا عالمًا، فاستحْيِ منه واعبدْه، ولا تعبدْ هذه الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع. قال: إن كان كما تقول فهو قادرٌ على أن يرزقَكَ ببلدِك، فلِمَ أتعبت نفسك إلى ههنا للتجارة. فانتبه شقيق من هذا الكلام، وأخذَ في طريق الزهد، ولمّا رجعَ اتّفق له مرافقةٌ مع مجوسيٍّ، قال له: يا فتى، ما شغلك؟ قال: التجارة. قال المجوسيُّ: تطلبُ ما قدّرَ لك، أو شيئًا آخر لم يُقدّرْ لك؟ فالأوّلُ يصلُ إليك ألبتّةَ، والثاني لا يصلُ إليك، وإن اجتهدْتَ إلى يوم القيامة. فبرد الدنيا على قلبه من هذا الكلام إلى أن جاءَ إلى بلخ، واجتمع عليه إخوانُه وأصحابه إذ كان فتىً سخيًّا يَتَفَتَّى، ويعاشر الفتيان.

وكان عليُّ بن عيسى بن ماهان حاكمًا في بلخ، ويحبُّ كلابَ الصيد، فَقَدَ كلبًا من كلابه، واتُّهِمَ به شخصٌ من جيران شقيق، ومضى شقيقٌ إلى الأمير وضمِنَهُ وقال: الكلبُ عندي، أردُّهُ إليكم إلى ثلاثةِ أيام، فخلّوا سبيله. وانصرفَ شقيقٌ مغتمًّا مهتمًّا لما صنعَ، ولمّا كان اليوم الثالث كان رجلٌ غائبًا من المدينة، رجعَ، ووجد في الطريق كلبًا عليه قلادةٌ، فأمسكه، وأهداه إلى شقيق، لأنه كان يشتغل به طمعًا له في شيء يُعطيه، فلمّا جاءَ به إليه، نظرَ شقيقٌ، فإذا هو كلبُ الآمير، فسُرَّ به، فحمله إلى الأمير، وخلص من الضمان، ورزقه الله تعالى الانتباه، وتابَ ممّا كان فيه.

وقيل: كان سببُ توبته وزهده أنّه رأى مَملوكًا يلعبُ ويمرح[1] في زمانِ قحطٍ كان الناس مهتمّين، فقال له شقيق: ما هذا النشاطُ الذي فيك! أما ترى ما فيه الناس من الحزن والقحط؟ قال المملوك: وما عليَّ من ذلك ولمولاي قريةٌ خالصة يحصلُ منها له من الغلّةِ ما يحتاجُ إليه. فانتبه شقيقٌ من غفلته، وقال: إن كان لمولاه قريةٌ، وهو مخلوقٌ فقير، وأنا مملوك لمالك الملوك والأملاك[2]، وهو حيٌّ غنيٌّ. ثم إنه ترك الدنيا، وليس يهتم لرزقه، وبلغ من

(١) في (أ): يلعب ويمزح.
(٢) في (أ): لمالك الملوك والأفلاك.

التوكّل إلى حدِّ الكمال، وكثيرًا ما كان يقول: أنا تلميذٌ لمملوك.

نقل أنه كان مشغولاً بالوعظ، إذ جاء خبرٌ: أنَّ عسكرًا من الكفار قصدَ المدينة، فخرج شقيقٌ كما كان على زِيِّهِ وهيئته، وانهزم العسكر بتوفيقِ الله على يده، ثم رجع، وجلسَ في المسجد، جاء شخصٌ وأتى إليه وأعطاه شيئًا من الورد الأحمر، وهو أخذَ يَشتمُّ موافقةً للسُّنة، نظر إليه شخصٌ قليلُ الأدب، وقال: إمامُ المسلمين يشمُّ الوردا!؟ فقال شقيق: ما لكم تنظرون إلى الوردِ المَشموم، ولا ترونَ العسكرَ المهزوم.

نقل أنه بينما يعَظُ الناس في سمرقند، قال: يا قومي، إن كنتُمْ أمواتًا فالمقابرُ أوْلى لكم، وإن كنتم صبيانًا فالمعلّمُ أحرى بكم، وإن كنتم مجانين فالمارستان أولى بكم، وإن كنتم كفارًا فالنيران أولى بكم، وإن كنتم مُسلمين، فأينَ الإيمان والإسلام والإحسان؟

قال له شخص: يذمُّكَ الناس ويلومونك على أنَّكَ تأكلُ من كسبِ الخلائق، تعالَ أنا أُجري لكَ إجراءً، وأرتّبُ لك راتبًا يصلُ إليك، كُلْ بلا كلفةٍ ومشقّة. قال: لو لم يكن فيك عيوبٌ خمسةٌ لتبعتك وآخذ أمرك: الأول: أنّ خزانتك تنقصُ بالاتفاق. الثاني: أنّ مالَكَ يسرقُهُ السارقُ. الثالث: يحتملُ أنَك تندمُ من ذلك. الرابع: لا يبعد إذا رأيت منّي عَيبًا تقطع عنّي الراتب. الخامس: إذا انقضى عمرُكَ أَبقى بلا زادٍ، ولي ربٌّ منزَّهٌ عن العيوب، ولي معه عهدٌ أن لا أطلبَ من غيره رزقًا، ولا أنقض العهد ما دمتُ حيًّا بتوفيق الله تعالى.

ونقل أن شخصًا جاء إليه وقال: أريد الحجَّ. قال له شقيق: وما زادُكَ في الطريق؟ قال: أربعةُ أمور: الأول: أني لا أرى أحدًا أقربَ إلى رزقي منّي، والثاني: أنّي أرى غيري أبعدَ منّي من رزقي، والثالث: أعلمُ أنَّ قضاءَ الله تعالى معي أينما أكون، والرابع: أنّي على أيِّ حالٍ أكونُ أعلمُ أن الله تعالى أعلمُ بحالي منّي. فقال شقيقٌ رضي الله عنه: ما أحسنَ هذا الزاد، امشِ فالحجُّ مبارك عليك.

نقل أن شقيقًا رحمه الله أراد سفرَ الحجِّ، ووصل إلى بغداد، وكان الخليفة هارون الرشيد، ودعاه إلى مجلسه، وقال: أنت شقيقُ الزاهد؟ قال: أنا شقيقٌ لا زاهد، والزاهدُ أنت. قال هارون: كيف أكونُ أنا الزاهد، ولي ملكٌ ومملكة؟ قال شقيق: لأنَّ الدنيا قليل عند الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وأنت قنعتَ من هذا القليل ببعضٍ، والزاهد من يرضى ويقنعُ من الكثيرِ بشيءٍ قليل، وأمّا أنا فكيف أكون زاهدًا ولا ألتفتُ إلى الكونين! فبكى هارون من هذا الكلام، وقال: أوصني وعظني يا شيخ. فقال: اعلم أن الله تعالى أَجلسَك في مقامِ الصدّيق، ويسألُك الصدقَ، كما يسألُه عنه ـ يعني الصديق ـ وفي مقام الفاروق، ويسألُكَ الفرقَ بين الحقِّ والباطل، كما يسألُه، وفي مقام ذي النُّورَيْنِ، ويسألُك الحياءَ والكرم، كما يسألُه، وفي مقام المُرتضى ويسألُكَ العلم والعدل، كما يسأله. قال هارون: زدني. قال: إن لله دارًا تُسمّى جهنم، وقد جعلك بوّابًا لهذا الدار، وأعطاك ثلاثةَ أشياء: المالَ، والسيف، والسوط، وأمرك بأن تمنعَ الناس بهذه الأشياء عن جهنّم، لا تمنعِ المحتاج عن المال، وأدّبْ سيِّءِ الأدب بالمقرعة، واقتصَّ للمقتول عن القاتل بالسيف، فإن عملتَ كذلك أنجيتَ ونجوت، وإلاّ أنت تُقدَّمُ إلى جهنم، ويتبعُك الناس. قال: زدني. قال: أنت كعينٍ، والعمالُ كالسواقي[1] الجارية منها، فإنْ كانت العينُ صافيةً لا تَضرُّ كدرةُ السواقي، وإنْ كانت العينُ كدرةً لا ينفعُ صفاءُ السواقي[2]. قال: زدني. قال: إن كنتَ في باديةٍ، وأشرفتَ على الهلاك من العطش، بكم تشتري جرعةً من الماء؟ قال هارون: بما يبيعون ويشترون ويطلبون أشتري. قال: فإن باعوا بنصف مُلكك، تشتري؟ قال: نعم. قال: فإذا شربت ولم يخرج[3] من جوفك، وقال شخص: أُريدُ النصفَ الآخر من مُلكك لأُداويك حتى يخرجَ منك الماء المشروب. قال: أعطيه. قال: ولِمَ تغترُّ

(١) في (ب): والمال كالسواقي.

(٢) قوله: (وإن كانت العين كدرة.. السواقي) ليست في (ب).

(٣) في (ب): فإذا شربت ولم يخرج.

بمُلْكٍ تكون قيمتُه جرعةً من ماء تشربه، ثم يخرج منك؟ فطاب وقتُ هارون، وبكى حتى أُغمي عليه، فلمّا أفاقَ وجَّهَهُ إلى منزلِهِ بإعزازٍ عظيم، وتبجيلٍ وتكريمٍ.

نقل لمّا حجَّ شقيق والتقى بإبراهيم بن أدهم وسأله، وقال: كيف حالُكَ في معاشك؟ قال إبراهيم: إن وجدنا شيئًا شَكرنا الله تعالى وإلاّ صبرنا. قال شقيق: هذا طريقةُ كلابنا في بلخ. قال إبراهيم: وأنتم كيف تفعلون؟ قال: إن وجدنا بذلنا، وإلاّ شكرنا. قام إليه إبراهيم وقبّلَ بين عينيه، وقال: أنت الأستاذُ واللهِ.

نقل أنَّ رجلاً شيخًا فانيًا جاء إليه ليتوبَ، وقال: لي ذنبٌ كبير. قال له شقيق: أبطأتَ في المجيء. قال الشخص: لا يا شيخ، من جاء قبلَ الموت ما أبطأَ. فقال شقيق: نِعْمَ ما قلتَ، وما أحسن مجيئك.

قال شقيق: رأيتُ في المنام أنه قيلِ: من اعتمدَ على الله في رزقه يحسنُ خلقه، ويصيرُ سخيًا، ولا يكون في طاعته وسواس.

وقال: مَنْ جزِعَ في المصيبة فكأنّما أخذَ رمحًا وبارز الله بالمحاربة.

قال: أصلُ الطاعة الخوفُ والرجاء والمحبة.

علامةُ الخوف تركُ المحارم، وعلامة الرجاءِ الطاعةُ الدائمة، وعلامةُ المحبّة الشوقُ اللازم والإنابة.

من لم يكن له ثلاثة أشياء، لا ينجو من النار: الخوف والطاعة والاضطراب.

العبادة عشرةُ أجزاء تسعةٌ في الفرار من الناس، وجزء في الصمت.

أكثرُ الناس هلكٌ[١] من ثلاثةِ أشياء: يُذنبون رجاء التوبة، ويؤخِّرون التوبةَ لطول الأمل، ويموتون بلا توبة طمعًا في رحمة الله.

---

(١) قوله: (تسعة في الفرار... هلك) ليست في (ب).

إن الله تعالى يُحيي أهلَ الطاعة[١] بعد موتهم، ويُميتُ أهلَ المعصية حالَ حياتهم.

ثلاثة أشياء تلزم الفقر، ولا تنفكُّ عنه: فراغُ القلب، وخفّةُ الحساب، وراحة النفس. وثلاثةُ أشياءٍ لازمةٌ للغنى: شغلُ النفس، وشدّةُ الحساب، وتعبُ القلب.

استعدَّ للموت، فإنه إذا جاءك ونزل بساحتك لا يرجع.

لا أحبُ شيئًا في الدنيا مثلَ ما أحبُّ الضيف؛ فإنَّ رزقَه ومؤنتَهُ على الله تعالى، ونزوله عليَّ سببٌ لتخفيف خطيئاتي.

قال: سألتُ سبع مئة عالمٍ عن مسألةٍ، والكلُّ أجابوا بجوابٍ واحد، قلت: من العاقل والكيِّسُ والغنيُّ والفقيرُ والبخيل؟ قالوا: العاقلُ من لا يحبُّ الدنيا، والكيِّسُ الفطنُ من لا تغرُّه الدنيا، والغنيُّ من رضي بقسمة الله تعالى، والفقيرُ من في قلبه[٢] طلبُ الزيادة، والبخيلُ من منعَ عن الله حقَّه الواجبَ في ماله.

قال حاتم الأصم: قلتُ له في آخر عمره: أَوصني وصيةً أنتفُع بها. قال: إن أردتَ وصيةً عامةً فاحفظْ لسانَك، ولا تتكلَّمْ إلاّ إذا رأيتَ ثواب كلامك في ميزانك، وإذا أردتَ وصيةً خاصةً لا تتكلّمْ أبدًا إلاّ إذا رأيتَ أنَّ سكوتَكَ عن الكلام يحرقُكَ، فحينئذ لك رخصةٌ في الكلام.

اللهم اجعلْ حديثَنا وتكلّمَنَا لنا لا علينا، وانظر بلطفِكَ وكرمك العميمِ إلينا، ولا تقطعْ برَّك وخيرَك عنَّا يا أرحمَ الراحمين.

* * *

(١) في (أ): أهل طاعتِهِ.
(٢) في (أ) والفقير من لا يكون في قلبه طلب.